من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

لغة الحضارة

العجلة او العربة

من الطف الابيات التي صحّت فيها التورية الى العجلة قول شمس الدين المزيّن الدمشقي في الامير سيف الدين منجك اليوسفي الناصري ، وقد عمّر المدارس والخوانق والخانات :

لنا مليك على البنيان مقتدر ، قلوبُ صُمّ الحصى من ذكره وَجِلة
ذو همّة ، لو وفى في امره جبل انى به مسرعًا ، في الحال ، بالعجلة (١

وفي ايام العباسيين ، سنة ٢٤٢ (٨٥٦ م) « حجّ من البصرة ابرهيم بن مظهر الكاتب على عجلة تجرها الابل وتعجب الناس من ذلك ».(٢ وكانت العجل حينئذٍ تجرّ بالجمال والابقار والخيول والبغال والاكاديش والحُمُر . ولكن لما مرض احمد بن طولون في انطاكية وطلب مصر « ثقل عليه ركوب الدوابّ فعملت له عجلة كانت تجرّ بالرجال وطُلِيَت له »(٣ . وكان يُتأنق في فرش هذه العجل حسب اقدار الركبان وثرائهم . وربما كانت احياناً « كالقباب مغطّاة بالديباج ».(٤ واجمل ما كانت تُرى في المهرجانات والاعياد النصرانية . وعليها النساء والفتيات والجواري في الحلي والحلل تختال بهنّ الشهاري الخراسانية والبغلات والحمر المصرية . حكى الحسن بن يعقوب قال : « صرت الى الرها

١) ذيل ابن قاضي شهبة . باريس ١٥٩٨ ، ص ٢٢٨
٢) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، طبعة مصر ، ٢ : ٣٠٧
٣) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ٢ : ٨٤
٤) السلوك في اخبار دول الملوك للمقريزي . خزانة الفاتيكان ٧٥٩ ، ص ٦١

فبتُّ بها وخرجت قبل عيد الصليب بيوم فاذا لدينا وجوه حسان من نصرانيات خرجن لعيدهنّ عليهن جيّد الثياب وفاخر الجوهر . واذا روائح المسك والعنبر قد طُيّب الهواء منها . وقد فُرش لهنّ على العجل وهو يُجرّ بهنّ».[1]

ويقال ايضاً للعجلة « عربة » وهي لفظة دخيلة. قال الخفاجي :« العربة بلغة اهل الجزيرة سفينة يعمل فيها رحى وسط الماء الجاري مثل دجلة يديرها شدة جريه . وهي مولدة فيما احسب . قالهُ في المعجم . وانا لا ادري هل المركب المسمى عربة أخذ من هذا او هو غير عربي وهو الظاهر ».[2] قلنا : ان الكلمة من اصل تركي « أرَبة » بالهمز . ثم غلب التلفظ بها بالعين اي عربة ومنها استُحدث اسم « العربية » الذي يطلق اليوم في الاصطلاح الدارج على المراكب التي تساق بالخيول . وقد ذكرها النويري بلفظها التركي وتوسع قليلاً في تعريفها ووصفها فقال في اخبار سنة ٧٢١ (١٣٢١ م) :

« في هذه السنة في شوال توجهت الخوند طغاي المحمودية وهي احدى زوجتي السلطان (الملك الناصر محمد بن قلاوون) الى الحجاز الشريف وجُهّزت اعظم جهاز سمع الناس بمثله . وجهز لها « أربات » ومحفّات . والاربات مقاعد من الخشب يجلس عليها . وهي مركبة على عجل امثال اتراس السواقي تجرّ بكديش واحد او جمل بختيّ . وتسرع في المرور غاية الاسراع . »[3]

وقال ايضاً في اخبار السنة التالية :

« سنة ٧٢٢ (١٣٢٢ م) كان وصول الآدر[4] السلطانية من الحجاز الشريف في يوم الثلثا ٢١ من المحرم . فركب السلطان لتلقيهم . ومدّ سماطاً . ثم طلعت الآدر السلطانية الى قلعة الجبل على « أربة » . وتقدمها نساء الامراء على

---

١) مسالك الابصار للعمري ، ص ٣٧٢

٢) شفاء الغليل ، ص ١٥٦

٣) مجلد من غاية الادب . خزانة ليدن Arab. Gaul. 19b f° 12b

٤) الآدر جمع دار . ويكنى بها احتشاماً عن زوج السلطان كما يقال لها ايضاً « الجهة » و « الستر الرفيع »

« الأربات » والكوسات تضرب . والعصائب منشورة وكان يوماً مشهوداً »[1] .

وفي ايام المقريزي كان لفظ « العربة والعربات » قد راج على الالسنة والاقلام . ولذلك كتب في اخبار سنة ٧٢٠ (١٣٢٠ م) :

« فيها وصلت الستر الرفيع الخاتوني طلنباي . . . وخرج كريم الدين الكبير ومعه عربات وبخاتي وبغال . . . وركب في العربة الى الميدان . والحجاب تمشي قدام العربة » .[2]

وكتب ايضاً في اخبار سنة ٧٢١ (١٣٢١ م) :

« قدمت تقادم نوّاب الشام برسم سفر الخاتون طغاي . وعمل الامير ارغون النائب برسمها ثماني عربات كعادة بلاد الترك . ليُسافر فيها وجرّها الى الاسطبل . فأعجب بها السلطان . »[3]

وفي هذه الاقوال شواهد صريحة على ان اصل العربة تركي . ولما تغلب احمد ابن قرمان على ابن عثمان اخذ منه في ما اخذ « سبعمائة عربة محملة » قال ابن تغري بردي في تفسير اللفظة : « والعربة هي التي تجرّ على الجمال والخيول والبقر . »[4]

وممن نصّ ايضاً على عثمانية العربة ابن اياس ، وكتب في حوادث سنة ٩٢٢ (١٥١٦) :

« في يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجة اخرج السلطان الزردخانة الشريفة التي يخرجها صحبة العسكر . فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التي كان صنعها بسبب التجريدة . وكانت عدتها مائة عجلة وتسمى عند العثمانية عربة . وكل عربة منها يسحبها زوج ابقار وفيها مكحلة نحاس ترمي بالبندق الرصاص . »[5]

---

١) غاية الارب ، المجلد المذكور اعلاه ٤٥b ٣

٢) السلوك للمقريزي . خزانة الفاتيكان ٧٥٩ ، ص ٦١

٣) السلوك للمقريزي . خزانة الفاتيكان ٧٥٩ ، ص ٦٢

٤) حوادث الدهور ، طبعة ليدن ، ٣ : ٦٨٤

٥) تاريخ ابن اياس ٣ : ٨٩

نزل بساحله

من مصطلحات الشام اليوم قولهم : « فلان نازل بساحل فلان » ، اذا كان آخذًا بانتقاصه وذكر مساوئه . ولا يُدرى متى تحوّل هذا التعبير عن معناه الأوّل . لانه كان يقال قبلًا : « نزل بساحله » ، اذا صفعه » . والى هذا المراد اشار القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في بيتين قالهما في فتح الملك الاشرف عكا سنة ٦٩٠ (١٢٩١ م) وهما :

يا بني الاصفر ، قد حلّ بكم نقمة الله التي لا تنفصل
نزل الاشرف في ساحلكم ، فابشروا منه بصفع متصل.(١)

ومنه ايضاً لمحمد بن دانيال الحكيم في البرهان الفاحشة . وقد صُفع :

نزلوا سحرًا في ساحله فرأى الاصباح جم ثُلَّاه(٢)

وقد صرّح بمعنى الصفع رضي الدين الحنبلي في كتابه « در الحبب في تاريخ اعيان حلب » . فقال في ترجمة محمد المنيّر شمس الدين الواسطي نزيل حلب : « كتب مرة رسالة وقال في ضمنها : قد خضت لجة بحر قد وقف بساحله . . . » فلما بلغ شيخنا العلامة الموصلي عابه على ذلك ، وانشد عنه :

ان المنيّر قد سا اقرانه بفضائله
ارسوا ببحر علومه وسيرتون بساحله

وفي البيت الاخير كما ترى ايهام لطيف . فان العوامّ يقولون : « نزل بساحل فلان ، اذا صفعه » .(٣)

قلنا : والعلاقة ظاهرة بين الصفع ، وهو اذلال وامتهان ، ومعنى العيب والاغتياب . فلا بدع اذا تدرّج المعنى الاول الى الثاني .

---

١) السلوك للمقريزي . باريس ١٧٣٦ ، ص ٢٢٣
٢) فوات الوفيات للكتبي ٢ : ٢٤١
٣) خزانة باريس ٢١٤٠ ، ص ١٤٠–١٤١

الوفر بمعنى الثلج

هو ، فيما يظهر ، خاصٌ بلغة العراق . قال عبد الرزاق الفوطي :

« سنة ٦٦٧ (١٢٦٨/٩ م) سقط ببغداد وفر كثير كان سمكه في السطوح دون الشبر » .

« سنة ٦٧٤ (١٢٧٥ م) وقع ببغداد وفر كثير علا على الارض مقدار شبر . »[1]

وروى الدبيثي في ترجمة محيي الدين الشهرزوري قال : « من شعره ما انشدني ابو الفتوح محمد بن علي بن المبارك البغدادي قال انشدني نفسه ونحن جلوس بداره وكان الوفر ينزل :

ولما شاب رأس الدهر غيظاً لما قاساه من فقد الكرام
اقام يميط عنهُ الشيب غيظاً وينثر ما اماط على الانام »[2]

البيع سيفَ الموالي

البيع في التجارة اليوم انواع تختلف باختلاف شروط التسليم فيها . واكثرها شيوعاً نوعان : الاول يتقاضى فيه البائع ثمن البضاعة وحدها بعد شحنها في اقرب مينا اليه . ويتولى المشتري العناية بالنزول والاستعهاد لحسابه الخاص . وهو المعروف بالفرنسية ببيع « فوب » fob وهي لفظة مختزلة من كلمتين franco bord . والثاني يضمن فيه البائع ايصال البضاعة الى الميناء الذي يعينه له المشتري . ويُشترط فيه ان يدفع المشتري ثمن البضاعة ونفقات نولها واستعهادها معاً ، بعد وصول اوراق الشحن اليه . ويطلق على هذا النوع من البيع لفظتان منحوتتان من الفرنسية والانكليزية . وهما « كاف » Caf ، و « سِيف » cif . والاولى مقتبسة من اوائل ثلاث كلمات coût = قيمة . assurance = استعهاد .

---

١) الحوادث الجامعة ، طبعة بغداد ، ص ٢٦٣ و٢٨٤

٢) ذيل تاريخ بغداد . باريس ٥٩٢١ ، ص ١٢٥

fret = نول . والثانية من ثلاث كلمات ايضاً : fraight, insurance, coast والنحت الانكليزي اقرب الى الصيغة العربية . ومن غريب الاتفاق وجود ما يرادفه في اللغة مبنًى ومعنًى . وهو لفظ « سِيف » بمعنى ساحل البحر . قال عمر ابن ابي ربيعة :

هيهات من أمّة الوهّاب منزلنا اذا حللنا بسيف البحر من عدن (١

فاذا قيل اشترى فلان كذا بسيفَ الاسكندرية مثلاً ، كان المعنى تسليم ساحل الاسكندرية . وهو يقتضي ضمناً تسليف البائع نفقات البضاعة من نول واستعهاد . وهو مؤدّى اللفظة الانكليزية بالضبط والتمام .

ويكون النصب على الظرفية كما في قول عمر بن ابي ربيعة ايضاً :

عدمتُ اذًا وفري ، وفارقت مهجتي ، لئن لم أقِلْ قرنًا إنِ الله سلّما (٢

اي ان لم اقِل في قرن . وهو كما في ياقوت جبل مُطلّ على عرفات . ويقال له قرن المنازل[٣] . ومن هذا القبيل الآية : فبما اغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . قال الزمخشري انتصابه على الظرف كقوله (كما عسل الطريقَ الثعلب) . وشبهه الزجاج بقولهم ضرب زيد الظهر والبطن . اي على الظهر والبطن[٤] .

تفسير المراكب

التفسير ، كما هو معروف ، ايضاح الغامض . وقد استعير لتبيان ما في المراكب من السلع لاستيفاء حقوق بيت المال عليها . ولا يخفى ما بين المعنيين من الجامع والصلة . ولم يرد بهذا الاصطلاح في كتب اللغة . ويشبه ان يكون اول ما استعمل في الدواوين السلطانية . قال ابن الفرات الوزير علي لرجل كان يخدمه : « وردت البصرة سفن من بلاد الهند . فانحدِر اليها وفتّشها . واقبض حق بيت المال وما كان من الرسم المستثنى . . . قال : فانحدرت وفسرت السفن وقبضت

١) الاغاني ، طبعة الدار ، ١ : ١١١

٢) الاغاني ، طبعة الدار ١ : ٢١٢

٣) معجم البلدان ٤ : ٧٢ (طبعة اوربة)

٤) الكشاف ١ : ٤٨١

حق بيت المال .»[1] وجاءت بهذا المعنى في رحلة ابن بطوطة . قال : « امروا صاحب المركب ان يتلي عليهم تفسيرًا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها » .[2] وما عنت هذه اللفظة ان استعملت بمعنى « الكشف » « والقائمة » في لغة المولدين . بقطع النظر عن علاقتها بالملاحة . ولذلك قال ابن بطوطة نفسه في كلامه على الفنادق في الصين : « اذا كان بعد الصبح جاء الحاكم ومعه كاتبه . فدعا كل انسان باسمه . وكتب بها تفسيرًا . »[3] اي ورقة باسمائهم . فيحسن من ثمّ بالكتاب اليوم ان يستعيدوا هذا الاصطلاح الذي اقرّه السلف ويختاروه في تعريب : note, relevé et inventaire .

الجُزازة والجُزاز

الجزازة كالقُصاصة كلّ ما جُزَّ واقتطع من اديم او ورق ونحوهما . وشاعت في عهد الخلافة العباسية بمعنى الرقعة والقطعة من القرطاس . وهي التي تسميها العامة اليوم « الورقة الطيّارة » . قال ابن خلكان : « تعرض شاعر لابي دلف وقد قصد دار علي بن عيسى . وبيده جزازة . فناوله اياها فاذا فيها مكتوب . . . »[4] وقال ياقوت : « قرأت في جزازة عتيقة املاها ابو الهيذام ما صورته . . . »[5] وفسرها دوزي بانها الورقة التي يكتب فيها المسافر ما يشتهي اكله وشربه في الخان .[6] واغترّ في هذا التفسير بما رواه الشريشي عن ابي ذرّ في شرح بيت الحريري من مقامته السابعة والعشرين المعروفة بالوبرية :

فاذا ما هبطت مصرًا فبيتي غرفة الخان ، والندم جزازة

١) تاريخ بغداد لابن النجار . باريس ١٩٣١ ، ص ٢٥
٢) رحلته (مطبعة النيل) ٢ : ١٥٦
٣) رحلة ابن بطوطة (مطبعة النيل) ٢ : ١٥٧
٤) وفيات الاعيان ١ : ٤٣٦
٥) ارشاد الاريب ٦ : ٢١٠
6) *Supplément aux dictionnaires arabes*, II, p.191

ولا ندري كيف يكون الاكل والشرب في الخان نديماً . وانما اراد الحريري بالجزازة كل صحيفة فيها علم او ادب . يطالعها تتغنيه في خلوته عن النديم . وهو ما اشار اليه الفنجديلي في شرح هذا الموضع بقوله : « الجزازة قطعة كاغد عليها شيء مكتوب »[1] . وهو اولى تفسير يعوّل عليه .

وجاء الجزاز بمعنى الاوراق المهملة والاجزاء والكراريس الساقطة من المجلدات مما يسمى اليوم باسم « الشت » . ولا تخلو منها خزانة خاصة او عامة . وقد تكون بينها الصحف النادرة . والخطوط المنسوبة من التَرِكات . حكى الجراليقي قال : « كنت اقرأ على ابي زكريا (التبريزي) شعر ابي دهبل حتى وصلت الى هذا البيت :

يجول وشاحاها ويخرب حجلها ويشبع منها وقف عاج ودملج

. . . وكان الابيوردي حاضراً . فلما قمت من عنده قال لي الابيوردي اتحب ان تعرف معنى هـذا البيت . قلت نعم . فقال اتبعني . فمضيت معه الى بيته فاجلسني واخرج سلة فيها جزاز فجعل يطوفها الى ان اخرج ورقة فنظر فيها . . .[2] وحدث ياقوت عن محمد بن احمـد الانصاري الدسكري المعروف بابن البرقطي قال : بلغني عن رجل معلم في بعض محالّ بغداد ان عنده جزازاً كثيراً ورثه عن ابيه . فخُيّل لي انه لا يخلو من شيء من الخطوط المنسوبة فمضيت اليه . . . وجلست افتش حتى وقع بيدي ورقة بخط ابن البواب »[3] . . . ومما رُوي عن ورع الرضي الشريف « انه اشترى اوراق جزاز من امرأة بخمسة دراهم . فوجد فيها جزءاً بخط ابن مقلة . فارسل اليها وقال وجدت في جزازك هذا . وقيمته خمسة دنانير . فان شئت الجزاز . وان شئت خمسة دنانير . فأبت وقالت بعتك ما في الجزاز . فلم يزل بها حتى اخذت الذهب .[4]

---

١) شرح المقامات الحريرية للشريشي ٢ : ٥٧

٢) ارشاد الاريب ٦ : ٢٥٦

٣) ارشاد الاريب ٦ ، ٢٦٦-٢٦٧

٤) الثالث عشر من عيون التواريخ للكتبي ٤٥ أ Or. 3005 خزانة بريتش موزيوم